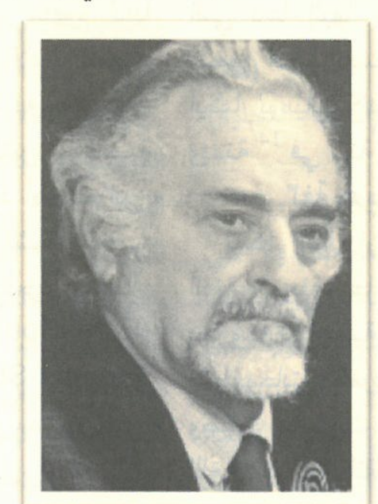
يوسف الخال و"جدار اللغة"[1]

أزمة "فصحى" أم حضارة؟

كامل فرحان صالح[2]

تعددت الدعوات، خلال القرنين الماضيين، إلى اعتماد "لغة عربية حديثة" بدلاً من الفصحى، واتخذت هذه الدعوات أوجهًا عدة؛ منها اللغوي المحض، ومنها اللغوي المشوب بطروحات حضارية قديمة (مثل الفينيقية، والفرعونية، والبربرية، إلخ). ولا يخفى أن موضوع اللغة "وتغييرها" ينحو منحيين؛ أولهما منحى تطويري يعتمد على موروث الفصحى، ويعمل من خلاله على "التطوير"[3]، وثانيهما منحى تغييري يخرج على قواعد الفصحى ونحوها، ويدعو إلى اعتماد "اللغة المحكية" بديلاً كتابيًا[4].

يركّز هذا البحث على إحدى دعوات المنحى الثاني، وبالأخص كما وردت عند الشاعر اللبناني يوسف الخال (1917؟[5]– 1987). لهذا السبب بالذات اخترت هذه الدعوة، لا غيرها، على الرغم من أنها واحدة من أقل الدعوات عمقًا وأكاديمية؛ فالخال، هو شاعر في المقام الأول وليس لغويًا، فجاء هذا البحث ليركّز على دعوته بشقّها النظري والمؤثرات التي دفعت إليها[6]؛ فالمرحلة النظرية، عند الخال، تُعَدُّ مدّتها طويلة قياسًا بالمرحلة التطبيقية، إذ إن الأولى امتدت من العام 1942 إلى العام 1981، أما المرحلة الثانية فقصيرة نسبيًا، نظرًا لوفاة الخال سنة 1987. وقد كان للخال بعض الكتابات في "اللغة العربية الحديثة" التي دعا إليها، لكن يحصر البحث هذه المرحلة التطبيقية، في ما أصدره من كتب في هذه "اللغة".



لا يخفى أن مفهوم الخال للغة العربية وسبل "تطويرها"، لا يجده المرء في كتاب محدد، وإنما يتلمّسه في بعض المحاضرات والمقالات والمقابلات التي أجريت معه، فالمقابلات التي أجريت مع الخال[7]، تشكل، بلا شك، إضاءة مزيدة على فكره وهواجسه وطموحاته. وما الدافع من وراء عرض ما جاء في بعض المقابلات التي أجريت معه، إلا لاستبيان جوانب دعوته اللغوية من ناحية أخرى، لأن الخال، لم يؤلف كتابًا خاصًا في دعوته اللغوية كما ذكر أعلاه. لذا، كان الاعتماد على المقابلات أيضًا، لإيضاح هذه الدعوة، في حال كان ثمة ثغور في هذا البحث، ولا سيما تلك التي تكلم فيها على مسألة اللغة عمومًا

واللغة التي دعا إليها وطبقها في ما بعد، خصوصًا. يضاف إلى ذلك أيضًا، ما جاء في صفحات مجلة "شعر"، والمقدمات التي استهل بها بعض كتبه، وهذا ما أدى إلى صعوبة استخراج مفهوم متكامل للغة التي دعا إليها. ولعل هذا سببه اهتمام الخال المنصب على انتاجه الشعري ورئاسة تحرير مجلة "شعر".

لكن، على الرغم من ذلك، لا بدّ من سؤال:

هل إن طرح الخال هذه المسألة، جاء تنفيسًا لما يعانيه شخصيًّا من اللغة، أم أن الوقت لم يسمح له حقًّا، بتفريغ ما يصبو إليه في كتاب ذي أساس متين ومنهج علمي وأكاديمي، هدفه طرح هذه الدعوة، وتحليل أهدافها؟

ما يعزز هذا السؤال هنا، أن الخال طبق بعد ذلك ما دعا إليه، لكن هذا التطبيق كان فرديًّا، بعد أن طمح من خلال طروحاته ومقالاته، أن يكون عامًا.

لا يفوت البحث أن الخال قد دعا من خلال مجلة "شعر" إلى تبني مفهوم "دنيا شعرية جديدة متكاملة"، في الأدب العربي المعاصر، وشجّع على الأخذ به، من دون أن يغفل البحث دار النشر الخاصة بالمجلة. كما يُعدُّ "الخال" أحد أهم العرّابين – إذا صح التعبير – لنشر الشعر الغربي ونظرياته الجديدة في العالم العربي، أمثال الشاعرين "عزرا باوند"[8] (Ezra Pound) و"ت. س. إليوت"[9] (Thomas Stearns Eliot) وغيرهما ممن أثر في مسار الأدب العالمي المعاصر.

يتناول هذا البحث أبعادًا لغوية معينة، إلا أن مقاربة الموضوع ليست لغوية تمامًا، فالدعوة إلى ما يسمّى "لغة عربية حديثة" صدرت أساسًا عن شاعر –كما ذكر أعلاه– وليست عن لغوي، ويؤكد الخال نفسه هذا التوجه، إذ يقول في تقريره المقدم إلى أعمال مؤتمر روما سنة 1961: "إن اللغة للأديب، ولا سيما الشاعر، هي كل شيء. فكيف يصنع الأديب إذا لم يحيّ لغته، إذا لم يَحيَها ويُحيها مع نبضات قلبه، إذا لم يصل بها إلى عمق أعماق الآخر؟"[10]. وهنا يمكن طرح السؤال: ما معنى أن يكون ثمة دعوة إلى "تطوير اللغة" من قبل شاعر؟ ثم ما هي الدوافع لتلك الدعوة، ولاسيما أن الخال لم يكتف بـ"الدعوة"، إنما توّجها بنشر ثلاثة كتب "إبداعية" على الساحة الثقافية تحمل بين صفحاتها الكتابة "باللغة العربية الحديثة" التي دعا إليها، فصدر كتاب "الولادة التانية"[11]، في سنة 1981، الذي بدأ معه الخال، بحسب قوله، الكتابة "باللغة العربية الحديثة" التي دعا إليها منذ سنة 1942[12]، ومن ضمن الخط نفسه الذي دعا إليه، أصدر أيضًا "يوميات كلب"[13]، و"على هامش كليلة ودمنة"[14] في سنة 1987؟

- **"لغة عربية حديثة"**

يمكن القول إن دعوة الخال، "لتطوير"[15] اللغة العربية، جاءت متأثرة إلى حدّ كبير، بطروحات غربية وعربية سابقة، ولاسيما بالطروحات الغربية الحديثة التي دعت وطبقت ما دعت إليه، وذلك عبر تدعيمها اللغة الشعرية التقليدية بلغة الحديث اليومي

المتداولة، التي لا تقف جامدة عند حركة الناس[16]. أما عند الخال، فالقضية باختصار، هي تدعيم "اللغة القديمة" باللغة العربية المتداولة في أحاديث المثقفين المعاصرين، وهو يميز بهذا بين ما يدعوه بـ"اللغة العامية" و"اللغة الدارجة".

هذا التفريق يتخذ أهمية متزايدة عند مستوى وحدة اللغة العربية، إذ يفهم من كلام الخال ثلاثة مستويات للغة:

– المستوى الأول: اللغة القديمة: اللغة العربية الفصحى في تشكّلها المتوارث عبر النتاج العربي القديم في الشعر والنثر.

– المستوى الثاني: اللغة الدارجة: وهي كلام المثقفين وأهل العلم المتداول في ما بينهم في مجالسهم الخاصة.

– المستوى الثالث: اللغة العامية: وهي كلام عامة الناس المتداول في ما بينهم في أحاديثهم اليومية. (اللهجة المحلية).

ويمكن وضع رسم بياني لهذه المستويات في اللغة على النحو الآتي:

المرحلة الأولى:

اللغة القديمة ← اللغة الدارجة (كلام المثقفين) ← اللغة العامية (اللهجة المحلية)

المرحلة الثانية:

اللغة الدارجة → ← اللغة العامية

يرى الخال إذًا، أن "اللغة العامية" هي ما يعرف بـ"اللهجة المحلية"، وأنّ "اللغة الدارجة" هي مدعوة، لديه، إلى الحلول محل اللغة الفصحى في العالم العربي كلّه. وبرأيه، سيكون الفارق بين اللغة القديمة والأخرى الحديثة "محددًا بتعديلات أساسية في قواعد النحو، إذ إن اللغة الدارجة ستكون مدعوة لأن تستوعب جميع القاموس العربي"[17].

وهذا ما يؤكده الخال في إحدى المقابلات التي أجريت معه[18]، إذ يقول:

"أنا نظريتي بكتابة اللغة المحكية أدبيًّا مع الحفاظ على أصولها وانتمائها للغة الفصيحة، لا أفصل بين المحكية والفصحى. أنا أقول إن اللغة التي كتبت بها (الولادة التانية) هي اللغة العربية الحقيقية وكيف تحدّثت. لا أقول لغة عامية ولغة فصحى، أقول: هذه هي اللغة الفصحى، هكذا صارت. هناك بالإضافة إلى ذلك، لغة عامية، ولكن هذه لا علاقة لنا بها. دائمًا في كل آداب العالم هناك لغة عامية عادية لا تُكتب. أنا أرفض أن أقول إنني أكتب لغة عامية وهناك لغة فصحى، أنا أقول: هذه هي اللغة الفصحى، أي ما أكتب بها، لذلك سميتها اللغة العربية الحديثة. هناك لغة عربية قديمة، وهناك لغة عربية حديثة، كما سمّى اليونان لغتهم القديمة، ولغتهم الجديدة: اللغة اليونانية القديمة واللغة اليونانية الجديدة...".

يتابع الخال قائلاً: "ما الفائدة من هذا الموضوع؟ الفائدة هي أنك عندما تأتي إلى اللغة العربية الحديثة تجد أن هذه الأثقال التي تحملها بهذه اللغة العربية الفصيحة، والتي لا نحكيها، طرحناها جانبًا، ونتكلم بدونها ونتفاهم. نتكلم أعمق موضوع تشاء بهذه اللغة متروكًا منها الأحمال والأعباء: النحو مثلاً، المثنى، نون الإناث، إلى آخره. هؤلاء لا نستعملهم عند الكلام، ومع ذلك

فإننا نتفاهم. أكتب اللغة العربية بدون هذه الأعباء وببيان وبلاغة. إذا كنت مقتدرًا تكتبها ببلاغة وإذا لم تكن أديبًا تكتبها بشرشحة... عدنا إلى قصة الشعر الحديث والشعر القديم... إذا كان أحدنا شاعرًا كان شاعرًا بقافية أو بدون قافية، بوزن أو بدون وزن. هذا هو الطرح الجديد الذي أنا طرحته. وأنا أعتبر أن هذا هو جدار اللغة، وبمعنى آخر: لا أدب حديث إلا بلغة حديثة! ما هي اللغة الحديثة؟ هي التي تُحكى، لا التي تُكتب ولا تُحكى. هذه ليست لغة حديثة".

لكن الخال، وفي المقابلة عينها، يناقض ما قاله في اللغة الحديثة التي، برأيه، تُكتب وتُحكى، فيقول: "دائمًا اللغة تُحكى لغتين: [...] اللغة الأدبية، واللغة غير الأدبية التي يحكيها الشعب". يعني، بحسب ما صرّح به الخال بدايةً، أن هناك دائمًا ازدواجية، والخال نفسه يؤكد هذه الازدواجية في اللغة، وذلك عندما يقول: "الازدواجية ستبقى، ولكن هذه لا تُسمى ازدواجية، لانه لا فرق بينهما. هناك فرق صفة، إن الرجل العادي ليس أديبًا، يحكي كما يشاء، موروا مثلاً، ميتران، يحكي لغة فرنسية حيّة. نفس القواعد التي فيها هي التي يحكيها "الدكنجي" الفرنسي ولكن لأن موروا أو ميتران مثقف، مفرداته تتثقف، ولكن اللغة ذاتها، بينما الذي يحكيه رئيس الجمهورية عندنا لا علاقة له بما يحكيه "الدكنجي". فعندما يخطب [ميتران]، عندما يتكلم مع الناس، فاللغة هي ذاتها"[19]...

هذا يعني، أن تطور "اللغة القديمة" مرتبط حصرًا، كما يفهم من كلام الخال، بالعربية المستخدمة في أوساط المثقفين، مبعدًا أثر المستوى الثالث المتمثل باللهجة المتداولة بين عامة الناس المحليين والعاديين، إذا صحّ التعبير، وبحسب مفهوم الخال في الأثر الذي يؤدي إلى تطور اللغة!

اللافت للانتباه في ما قاله الخال، تمويه لمسألتين لا بدّ من الإشارة إليهما:

1- بدل أن يرفع الخال مستوى اللغة، التي يريد "تطويرها"، يلاحظ القارىء أنه، بكلامه هذا، يحدّها، ويقلل من رحابتها وإمكاناتها التي تتمتع بها. وفي هذا السياق، يبدو من المفيد الإشارة إلى ما قاله الباحث المصري محمد عطية الأبراشي (1897 – 1981) في كتابه "الآداب السامية" الصادر في طبعته الأولى سنة 1946: "إن في اللغة العربية ناحيتين: الناحية الكتابية وهي حيّة فيها قوية كما كانت في أزهى عصورها، والناحية اللسانية وهي عامية تقرب من العربية بين المثقفين، وعامية عادية بين الأميين"[20]. ويلحظ أن الأبراشي لا يدعو إلى إحلال لسان المثقفين في الكتابة، بل قام بهذا التقسيم للإيضاح، وهو مكتوب تحت موضوع "حياة اللغة العربية" (ص 219)، ومن ضمن الفصل الحادي

عشر الذي هو تحت عنوان: "كيف ننهض باللغة العربية".

2- إن المؤكد تاريخيًا، ارتباط اللغة بالحضارة، فالحضارة المتقدمة فكريًا واجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا وعلميًا، تجعل لغتها كذلك، ويحصل العكس عندما يكون مجتمع هذه الحضارة، قابعًا في التخلف، والأميّة متفشية بين جنباته، ويتخبط في أزماته.

هناك ارتباط جدلي إذًا، بين اللغة والمجتمع، إذ لا يمكن دراسة الأولى وإهمال الثاني والعكس صحيح، وهذا ما حاول الخال القيام به، وإن كان في كلامه عبارات عن "الشعب" و"الدكنجي" و"الناس". فضلاً عن ذلك، ماذا يعني الخال بكلامه: "هناك فرق صفة"؟ الملاحظ، أن هذا "الدكنجي" العربي كان يفهم ويستوعب كل ما كان يقوله الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر (1918 – 1970) مثلاً، ويتفاعل ويتأثر بكل كلمة يقولها، وهو في هذا الإطار، رئيس مثله مثل الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران (François Mitterrand / 1916 – 1996) الذي استشهد به الخال. إذًا، يعود السؤال ليطرح نفسه: هل العقبة في اللغة، أم في المجتمع الناطق بهذه اللغة؟

يمكن رؤية هذه الدعوة عند الخال تطبيقيًا في ديوانه "الولادة الثانية" الصادر سنة 1981. يلحظ في هذا الديوان أن التعابير أتت على بعض الخلاف مع التعابير الموروثة، من اللهجة[21] والوجه الفصيح. كما يلحظ أن البعد بين اللغتين: الفصحى والعامية (أو "الدارجة" بحسب الخال)، لم يكن إلا من جهة القواعد واللفظ، أما المعاني الشعرية، فهي واحدة في كلتا اللغتين من دون فرق، ولا اختلاف:

"... حتى الشمس بتغير [تغير] لونها عالأرض [على الأرض]
والنجوم بتكبر [تكبر] أو بتصغر [تصغر] حسب المسافة
لكن الحريري بعده بيكتب [يكتب] مقاماته
ع [على] ورق مهتري [مهترئ] من كترة [كثرة] الدعس..."[22].

وهذا نموذج آخر من كتاب "يوميات كلب" الصادر سنة 1987:

"بتريد تعرف قِدّيش الإنسان حِيوان؟ شوف كِيف الناس
بيعاملوني. ما في حدا بهالضيعة إلا رماني بْحجر. هو عن حُب
أو عن بُغض، ما بعرف. لأن الحُب،
إذا كان حقيقي بيكون أخو البُغض.
مرات بنجرح. وفي مرّة، لولا شويّ، انكسر
راسي. لكنّي ولا مرّة هْجمْت على حدا وْعَضّيْتُه.
كنت بِقدر انهشه نهش. لكن لا. خلّي الإنسان
ينهش الإنسان. وهيدا بيكفّي تيسيل الدم للركب.
لأن الإنسان في تحت جلده مليون حيوان،
لكن الحيوان ما في تحت جلده غير حيوان
واحد"[23].

تتضح في نصوص هذا الكتاب، "اللهجة اللبنانية" بشكل أوضح، ويلاحظ في هذا النصّ مثلاً، أن كلمات كثيرة تلفظ في

مناطق لبنانية أخرى عكس ما هو مكتوب، حتى على مستوى المثقفين أنفسهم؛ فلفظة "حيوان" التي يكتبها الخال هكذا في نصّه، مثلاً، يمكن أن تلفظ وتكتب على غير وجه: حَيَوان (بفتح الحاء والياء)، حَيْوان (بسكون الياء)، وقس على هذا الألفاظ الأخرى.

يلحظ في هذا الكتاب أيضًا، تشابه عمل الخال مع ما جاء في كتاب الشاعر الأميركي ت.س. إليوت: "ديوان القطط: أو ما قاله الجرذ العجوز عن القطط العملية"، صدر باللغة الإنكليزية سنة 1939، وترجمه صبري حافظ إلى العربية وصدر في مصر. يوصَف "ديوان القطط" بأنه عمل شعري متميز يخاطب فيه إليوت مستويات متعددة من القرّاء بدءًا بالأطفال الذين يستهويهم التعرف إلى القطط، حتى الشعراء المتخصصين الذين يسعون إلى سبر أغوار التجربة الشعرية. ويلحظ أن إليوت استطاع أن يخلّد بعض النماذج القططية الشائعة[24]. كذلك فعل يوسف الخال في كتابه "يوميات كلب"، إذ يبدو أنه تأثر إلى حدّ كبير، بديوان إليوت، وأضفى صفات الإنسان على الحيوان.

– المرحلة النظرية[25]

بدأت المرحلة النظرية عند الخال في العام 1942، من خلال محاضرة ألقاها (باللغة الدارجة) في النادي الأدبي التابع للجامعة الأميركية[26] في بيروت عندما كان طالبًا فيها.

أ- "أربع بيئات لغوية"

يشير الخال، في محاضرة الجامعة الأميركية، إلى أن "لغة الكلام في الأقطار العربية جمعاء هي لغة عربية متطورة من اللهجات "الجاهلية" التي رافقت الفتح العربي، وفي طليعتها لهجة قريش التي جعلها القرآن لغة الفتح ونموذجًا للغة العربية المكتوبة. وبكلمة أخرى، جعلها اللغة العربية دون سواها، أو اللغة الفصحى... وهي في تطورها تأثرت بالبنية الثقافية والاجتماعية والجغرافية المحلية. وإذا ما نظرنا إلى لغة الكلام هذه نجد أن تطورها واحد... أهمها: إلغاء الإعراب، والاستغناء عن عدد من الضمائر والاكتفاء باسم واحد من أسماء الموصول، وهو "اللي". والاكتفاء باسم إشارة واحد، وهو "ها". وأخيرًا الاستغناء عن نون النسوة وألف المثنى... إلخ".

ويرى الخال أن "العالم العربي منقسم، كما في الواقع، إلى أربع بيئات ثقافية، وبالتالي لغوية. فإذا اعتمدت لغة الكلام في كل من هذه البيئات الأربع لغة كتابية، ثم تركت لها حرية النمو والاستيعاب والتجربة، فلن يمضي زمن طويل حتى تبرز شخصيتها المميزة، تمامًا كما كانت الحال في العالم اللاتيني"[27].

إن لهذا الكلام أهمية في استيعاب مفهوم الخال للغة وتاريخها ومستقبلها، لذا، فإن هذه المحاضرة تشكل مفتاحًا رئيسًا في

الدخول لطروحات الخال اللاحقة في اللغة، إذ يمكن رؤية ما قاله الخال في هذه المحاضرة بمعنى آخر؛ إن لغة الكلام (اللهجات) المتداولة في العالم العربي ما هي إلا لغة عربية متطورة، في حين أن لهجة قريش، التي أنزل فيها القرآن، أصبحت اللغة المكتوبة. واللغة العربية الفصحى، لم تتطور، لأنها لم تصل إلى ما وصلت إليه اللهجات "الجاهلية" الأخرى الآن من "إلغاء الإعراب..." (...) إلى آخر المقطع. ويمكن الإشارة إلى مسألتين أخريين تبرزان من خلال كلام الخال، ولعله تعمد ألا يشير إليهما، وهما:

- **المسألة الأولى:**

عدّ الخال أن اللغة العربية الفصحى اليوم هي عين اللغة العربية الفصحى القديمة. وهذا يعني أنها لم تتطور. وهنا لم يوضح ما معنى كلمة "تطور"؛ هل يقصد الإعراب؟ فإن كان يقصد الإعراب، فهذا صحيح، لأنه لا يمكن للغة أن تكون من دون إعراب ونحو يضبطانها. أما إذا كان يقصد العبارات والمعاني، فهذا غير دقيق، لأنه دخلت على اللغة العربية كلمات كثيرة لم تكن في بداياتها، والدليل أن يأخذ المرء نصًا للشاعر أبي نواس (756 – 814م) ويقارنه بنصّ آخر لعنترة (525 – 608م)، فيلحظ الفرق في استخدام الكلام، أو يأخذ نصًا للشاعر السوري نزار قباني (1923 – 1998) ونصًا آخر للشاعر عمر بن أبي ربيعة (644 – 719م) مثلاً.

يشار إلى أن القرآن لم يُنَزَّل بلهجة قريش "اللغة العربية دون سواها" بحسب قول الخال، بل إن القرآن أنزل بلغات (لهجات) متعددة وليس بلغة (لهجة) قريش وحدها. وفي حديث للنبي محمد يقول: "إن جبريل عليه السلام أتاني فقال: إن ربّك عزّ وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: اللهم خفِّف عن أمتي. ثم عاد فقال: إن ربّك عزّ وجلّ يأمرك أن تقرأ القرآن على حرفين، فقلت: اللهم خفِّف عن أمتي. ثم عاد فقال: إن ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف، وأعطاك بكل ردة مسألة"[28].

وهناك شبه إجماع على أن المقصود بـ"الحرف" هو "اللغة"، أي الفارق اللهجي بين قبيلة أو مجموعة من الناس وأخرى، والدليل على ذلك قول النبي: "نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف، فاقرأوا كيف شئتم"[29].

يؤكد هذا التوجه كل من الكاتبين المصري محمد عطية الأبراشي (1897–1981) واللبناني أنيس فريحة (1903–1993) في كتابيهما؛ فيقول الأبراشي: "ومن الخطأ الشائع بين الأوروبيين القول بأن اللغة العربية هي لهجة قريش فحسب، فإن هذا الحكم لم يقل به مؤلف عربي يعتد به. ومع الأسف قد جعلت تلك الفكرة القائلة بأن اللغة العربية هي لغة قريش أساسًا لنظرية خاطئة كثيرًا ما تتكرر في العصر الحاضر"[30].

أما فريحة فيقول: "تُعرف العربية الفصحى بلغة عدنان مقابلة لها بلغة قحطان. وتعرف كذلك بلغة مضر، ويفضل المتأخرون تسميتها بلغة قريش أو لغة مكة.

وعندنا أن هذه التسمية ليست دقيقة؛ ذلك لأن الدور الذي لعبته قريش أو مكة في تكوين هذه اللغة قبل الإسلام، ثانوي لا يؤبه به. ولا ينكر اللغويون القدامى أن جلّ ما أخذوه كان عن الأعراب لا عن أهل المدن. غير أن نسبة الفصحى إلى قريش ومكة إسلامية، لما اكتسبته قريش ومكة من مكانة دينية – سياسية سامية"[31].

لذا، يجد الباحث أن حصر الخال اللغة العربية الفصحى بلهجة قريش، ليس دقيقًا، وذلك للأسباب الآتية:

1- إن نسبة اللغة العربية إلى لهجة قريش فحسب، هو خطأ شائع بين الأوروبيين.

2- إن هذا الحكم لم يقل به مؤلف عربي يعتدّ به.

3- إن القرآن نزل بلهجات متعددة لا بلهجة قريش وحدها.

4- لا ينكر اللغويون القدامى أن جلّ ما أخذوه كان عن الأعراب لا عن أهل المدن، وقريش تعدّ من أهل المدن.

كما يُذَكِّر التقسيم الذي وضعه الخال للعالم العربي، بشكل أو بآخر، بتقسيم وضعه أنطون سعادة (1904 – 1949) مؤسس "الحزب السوري القومي الاجتماعي" وزعيمه، للعالم العربي أيضًا. لكن يلحظ أن الخال قد أخذ عن سعادة التقسيم الجغرافي، أما من ناحية موقف سعادة تجاه اللغة العربية الفصحى، فهو مختلف كثيرًا[32].

- **المسألة الثانية:**

أما المسألة الأخرى التي تعمد الخال إغفالها، فهي عدم تفريقه بين لفظة "لغة" ولفظة "لهجة" بمعنييهما المعاصرين، وقد أوردهما بمعنى واحد، ويمكن مناقشة هذه المسألة في نقطتين:

الأولى: هي أن العرب قبل الإسلام وبعده، لم يفصلوا فصلاً واضحًا صريحًا بين لفظتي لغة ولهجة[33] كما يتم فصلهما اليوم[34]، بل يجد المرء نفسه أمام خلط كبير بينهما[35]، وليس هناك من فرق واضح يجعله يميز بدقة معنى كل كلمة سوى أن اللغة هي أصوات مشتركة عامة متفق عليها بين القوم يعبّرون بها عن أغراضهم، واللهجة هي التصرف اللفظي الخاص لقوم باللغة التي جُبِلوا عليها واعتادوها. ما يفهم، مع أن اللبس ما زال قائمًا، أن اللغة عامة واللهجة خاصة.

الثانية: لكن هذا التحديد لمعنيي اللغة واللهجة الذي اعتراه بعض الإبهام والغموض في المعاجم العربية، كان يمكن فهمه بوضوح أكبر على أرض الواقع، ولا سيما بعد أن حلّت اللغة العربية (عن طريق لغة القرآن) في البلدان التي دخلت الإسلام والتي تبعها إيمان معظم مجتمعاتها بالدين السماوي الجديد.

فهذه المجتمعات كان لها – بطبيعة الحال – لهجات خاصة[36]، ولعله مع دخول اللغة العربية في حياتها (حكمًا ودينًا) امتزجت عندئذ اللغة باللهجة السائدة في النطق، وخرج منها لهجة جديدة تُستخدم في المعيش اليومي والمحادثة العادية بين أفرادها، متفلتة إلى حدّ ما من ضوابط النحو والصرف المستخدمين بالنطق والكتابة في اللغة العربية. وعلى الرغم من

هذا، فإن تحديد التاريخ الذي بدأت به اللهجات العربية في أي بلد من البلدان "ليس في مستطاع باحث أن يصل إليه"[37].

تكمن الصعوبة في عدم وجود مؤلفات قيّمة قديمة "بهذه اللهجات في الأدب أو العلم في القرون السالفة، لأن اللغة الفصحى هي التي كانت – ولا تزال لغة الكتابة والتأليف"[38]. هذه اللهجات كانت في تحول مستمر، "فلو دوّن إنسان لغة عامية في بلد قبل مئة سنة، ثم قورنت بلغة هذه العامية بعد مئة سنة، لظهر من الفرق في الألفاظ والأساليب والمعنى والأداء ما يدهش له الإنسان"[39]. فاللهجات المتشعبة والعديدة هي في الدرجة الأولى، لهجات تخاطب وقضاء حاجات عادية، "فالذي يهمّ المتخاطبون فيها التفاهم والاقتصاد في الوقت، سواء أكان ذلك على وجه صحيح أم معتل"[40].

وثمّة قول شائع يرى أن اللهجات المتعددة ما هي إلا عربية محرّفة، دخلتها طائفة كبيرة من الألفاظ الأعجمية. وقد اتضح لبعض الباحثين في اللغة أن كلمات عامية تظهر كأنها بعيدة جدًا من الأصل العربي هي في الواقع، بعد البحث العميق بنظرهم، موجودة في المادة اللغوية[41]؛ فالباحث اللبناني أحمد أبو سعد (1921 – 1999) مثلاً، يقول في بحث له: "إن اللغة العامية اللبنانية هي لغة عربية أصيلة تعرضت مفرداتها لمؤثرات النحت، والقلب، واللحن، والإبدال، والزيادة، والاختزال، والتصحيف، والتحريف، حتى وصلت إلينا بهذا الشكل المشوّه الذي يجعلنا نتوهم للوهلة الأولى أنها لغة مستقلة عن اللغة الفصحى التي نستعملها في الأدب"[42].

لكن هذا القول، بأن اللغة العربية هي الأصل في كل الألفاظ للهجات الكثيرة في العالم العربي، لا يمكن تعميمه وتأكيده، لأن اللغة العربية وخلال انتشارها مع الفتوحات الإسلامية، لا شك أنها كانت تقوّض "أركان اللغات وتمحو أغلب آثارها من الوجود وتأخذ هي مكانها من الألسن"[43]، لكن الطبقات العامية من الناس في البلدان التي افتتحوها، أخذت تلهج بلغة عربية ممزوجة بكثير من الكلمات الأعجمية، وبدأت ألسنتهم تنحرف حتى في نطق الكلمات العربية، وهذا يعود بشكل أساسي إلى تأثير اللهجات السابقة والمنطوقة في هذه البلدان؛ ففي مصر كانت اللغة السائدة بين أفرادها اللغة القبطية، وفي عاميتها كلمات لا تتصل بالعربية الفصحى ولا هي مألوفة في اللغة القبطية، فهذه الكلمات في الأصل سريانية أو عبرية أخذت من إحدى هاتين اللغتين إلى العامية مباشرة[44]. واللهجة السائدة في بلاد الشام بين أفرادها متأثرة باللغة السريانية واللغة العبرية أكثر من أية لهجة عربية أخرى. وقد يجد المرء كثيرًا من الكلمات العربية قد أخذت غنّة سريانية أو عبرية، وكثيرًا من الكلمات العربية التي لها مرادفات قريبة منها في اللغة العبرية أو السريانية قد أخذت مكانها في الاستعمال إحدى هذه المرادفات العبرية أو السريانية[45].

ويقول الأديب اللبناني مارون عبود (1886 – 1962) في هذا الصدد: "...

أما الضم المشبع في عين المضارع وغيرها (في اللهجة اللبنانية)، فمردّه إلى اللغة السريانية التي طلقوها منذ قرنين أو أقل، وهذا الضم أشيع ما يكون في شمالي لبنان... أما الابتداء بالسكون في كسروان والشمال، فأثر سرياني، يقولون: خْديد، خْليب، شْليم. وقولهم إيدين في يدين، وإيد في يد، سرياني أيضًا... كذلك يلفظون الكرسي كُورسي بالضم العنيف لأن سريانيها كورسيو. وكثرة النون في اللهجة اللبنانية مصدرها سرياني فقالوا: هنّي بدلاً من هم، ويقولون ضربتن قتلتن، وكيفن أهل البيت، بدل من كيف هم، فميم الجمع العربي نون في السريانية... ويقول بعضهم أيْمَاتْ، وأيمتَان، وأيْمَتَى، وهي بلا شك من "آمات" السريانية بمعنى متى الاستفهامية. وأظن، لا بل أجزم، مخالفًا الباحثين جميعًا، أن لفظة "كَمَانْ" العامية بمعنى أيضًا هي أُكْمَنْ السريانية، حذفت منها الهمزة. ... كذلك قولنا برّا وجوّا فهما لفظتان سريانيتان. ... إن هدف العامة هو الخفة، فألين الحروف أحبّها إليهم، وقد أدرك العرب ذلك فجعلوا النون الناعمة لجمع الجنس اللطيف..."[46].

كذلك امتزج بالعامية الشامية كثير من الألفاظ التركية[47] والإفرنجية ولا سيما الفرنسية في عهد الحملة الصليبية.

أما اللغة العامية في العراق، فامتزجت فيها ألفاظ فارسية وكردية وتركية. كذلك احتفظت اللهجات اليمنية بعناصر سبئية ومعينية قديمة[48]. وفي بلاد المغرب تعرضت اللغة العامية العربية فيها لتأثير ومزج كبيرين من قبل اللغة الأمازيغية (البربرية) (Berbers or Amazighs) التي تختلف اختلافًا كبيرًا عن نطق الكلمات العربية، فصارت اللغة العامية لها رطانة بربرية بعيدة كل البعد من اللغة العربية الأصلية[49]. ويمكن ملامسة هذا إلى اليوم.

بعد هذا العرض، فإنه من الواضح تاريخيًّا أن الصراع بين اللغة الفصحى واللغة العامية في أي بلد من هذه البلدان، كان محسومًا لمصلحة اللغة العربية الفصحى، وهذا يمكن لمسه في مجال الكتابة الأدبية والتاريخية والاقتصادية والدينية. وفي هذا السياق، يمكن أن تفهم الأسباب التي دفعت علماء اللغة إلى وضع القواعد النحوية والصرفية لتكون سياجًا يحول دون تدهور اللغة العربية، واتجهوا إلى كلام العامة محاولين إصلاحه لا تدوينه، وألفوا في ذلك عشرات الكتب منبهين إلى لحن العوام أو الخواص الذين تطرق الفساد إلى ألسنتهم[50].

يسجل أيضًا، أن اللغة العربية أثّرت، بنسبة ما في اللغات الأخرى، إن في

استخدام بعض الألفاظ، أو في اتخاذ رسم الحروف الأبجدية العربية في الكتابة[51]. كما أن اللغة العربية نفسها قد تأثرت بلغات عديدة قبلها وبعدها، خصوصًا اللغات السامية، ومنها: الآشورية، العبرية، الفينيقية، الآرامية، والسريانية. كما تأثرت باللغة الفارسية. وفي العصور الحديثة أخذت اللفظة الأجنبية لبعض الاختراعات كما هي، إنما بحروف عربية، ونزلت في الاستخدام الكتابي العربي.

إن اللغة العربية وحّدت بين أجزاء العالم العربي، وكتبت فيها مؤلفات أثّرت في مسار التطور الإنساني، لكن سبعة قرون من الانحطاط[52] كان لها الأثر السلبي لا على اللغة فحسب، بل على الأمة العربية جمعاء أيضًا، ما أدى إلى دعوات تطالب بإعلاء لهجاتها المحلية ودراستها وتقعيدها، ومن ثم إلى إحلال لهجتها محل العربية. ولم تقف هذه الدعوات عند هذا الحد، بل تعدته إلى المطالبة بإبدال الحرف اللاتيني من الحرف العربي. وكانت بدايات هذه "المشاريع" الرامية للتقليل من أهمية اللغة العربية الفصحى والمطالبة بإحلال العامية مكانها، منذ أواخر القرن التاسع عشر.

ب- "مستقبل الشعر في لبنان"

يلقي الخال بعد هذه المحاضرة، محاضرة أخرى في "الندوة اللبنانية" سنة 1957[53] تحت عنوان: "مستقبل الشعر في لبنان". فبعد أن يستعرض الخال في محاضرته الثانية، مسيرة الشعر منذ قرن ونصف القرن، أي عصر الانحطاط، على حدّ تعبيره، إلى اليوم الذي ألقى فيه المحاضرة، يصل في نهاية هذه المحاضرة إلى أسس، يرى فيها "مستقبل الشعر في لبنان رهنًا بقيام شعر طليعي تجريبي" يقوم على ركائز أوردها الخال في عشر نقاط[54]، وهي:

"1. التعبير عن التجربة الحياتية، على حقيقتها، كما يعيها الشاعر بجميع كيانه – أي بعقله وقلبه معًا.

2. استخدام الصورة الحيّة – من وصفية أو ذهنية – حيث استخدم الشاعر القديم التشبيه والاستعارة، والتجويد اللفظي، والفذلكة البيانية، فليس لدى الشاعر كالصور القائمة في التاريخ أو في الحياة، وما يتبعها من تداع نفسي يتحدى المنطق ويحطم القوالب التقليدية.

3. إبدال التعابير والمفردات القديمة التي استنزفت حيويتها بتعابير ومفردات جديدة مستمدة من صميم التجربة ومن حياة الشعب.

4. تطوير الإيقاع الشعري العربي وصقله على ضوء المضامين الجديدة، فليس للأوزان التقليدية أية قداسة.

5. الاعتماد في بناء القصيدة على وحدة التجربة والجو العاطفي العام، لا على التتابع العقلي والتسلسل المنطقي.

6. الإنسان – في ألمه وفرحه، خطيئته وتوبته، حريته وعبوديته، حقارته وعظمته، حياته وموته – هو الموضوع الأول والأخير. كل تجربة لا يتوسطها الإنسان هي تجربة سخيفة مصطنعة لا يأبه لها الشعر الخالد العظيم.

7. وعي التراث الروحي – العقلي العربي، وفهمه على حقيقته، وإعلان هذه

الحقيقة كما هي دون ما خوف أو مسايرة أو تردد.

8. الغوص إلى أعماق التراث الروحي – والعقلي الأوروبي، وفهمه، وكونه، والإبداع فيه[55].

9. الإفادة من التجارب الشعرية التي حققها أدباء العالم. فعلى الشاعر اللبناني الحديث أن لا يقع في خطر الانكماشية، كما وقع الشعراء العرب قديمًا بالنسبة للأدب الاغريقي.

10. الامتزاج بروح الشعب لا بالطبيعة. فالشعب مورد حياة لا تنضب، أما الطبيعة فحالة آنية زائلة[56]".

هذه هي الأسس التي يقوم عليها، برأي الخال، "مستقبل الشعر في لبنان"، التي من ضمنها إهمال الكلمات والتعابير التي استنفدت وقلّ استعمالها في الحياة اليومية، وإدخال الكلمات والتعابير المستمدة من صميم تجربة الشاعر وبيئته ومجتمعه، إلى قصيدته.

يلحظ أن الخال استبعد في التقسيم الذي ذكر أعلاه، "اللغة العامية" المرتبطة أساسًا "بحياة الشعب". فالسؤال الذي يطرح: ما المقصود بكلام الخال هنا، بعد أن ربط تطور "اللغة القديمة" بـ"اللغة الدارجة"؟

يؤكد الخال مرّة أخرى طرح السؤال هنا، حين يقول سنة 1955: "وبما أننا كنا نجابه اليوم مشكلة اللغة، فلأننا استفقنا من كابوس هذه النهضة إلى الوراء. فمنا من يدعو إلى تبسيط اللغة، وهي دعوة فارغة، ومنا من يدعو إلى الاعتراف باللغة كما انتهت إلينا على ألسنة الناس، وهي الدعوة الحق"[57].

ويقول أيضًا في مجلة "شعر" سنة 1960: "لتكون القصيدة حديثة يجب أن تعبّر بالصورة الحيّة المجسّدة، وبكلمات وعبارات حيّة بين الناس، وأن تعبّر عن روح العصر"[58].

الملتبس هنا، فهم ما يقصده الخال تحديدًا بعباراته: "حياة الشعب"، و"ألسنة الناس"، و"حيّة بين الناس" و"روح العصر"؟ فـ"اللغة الدارجة" المتداولة في أوساط المثقفين، هل تدخل ضمن "اللغة العامية" التي هي "لغة الناس العاديين"، أم العكس؟ وهل "روح العصر" هي روح العلم ولغته حكمًا؟

ج- "الأسلوب العتيق"

يصدر الخال في العام 1954 مسرحية شعرية تحت عنوان: "هيروديا"[59]. تتصدر المسرحية مقدمة بقلم الخال نفسه، جاء فيها بأن "هيروديا قد تكون آخر ما ينتجه من أدب في هذا الأسلوب الشعري العتيق"، لأنه "من العبث الاستمرار في استعمال أساليب شعرية لا تصح بعد الآن للتعبير الكامل الطليق عن خوالج النفس، ولا أعني القوافي والأوزان فحسب، بل اللغة ذاتها أيضًا". ويرى الخال: "أن أزمة الحياة العربية إجمالاً هي أزمة لغة كما هي أزمة عقل"، ويؤكد في المقدمة: "أنه مهما طال الوقوف في وجه الحياة، فلا بدّ عاجلاً أم آجلاً من الانصياع إلى نواميسها. وإلى أن يتم ذلك يظل الأدب العربي المعاصر أدبًا قديمًا، مصطنعًا، محدودًا، لا يتجاوب مع نفس القارىء، ولا يعبر تعبيرًا صادقًا عن حياته"[60].

لكن كتاب "هيروديا" لم يكن آخر ما أنتجه الخال من أدب بهذا "الأسلوب الشعري العتيق"، بحسب قوله. ولم يُعرف السبب الحقيقي الذي لم يمكّن الخال من إصدار كتاب "باللغة العربية الحديثة" قبل سنة 1981، أي بعد سبع وعشرين سنة من "هيروديا"، وهو ديوانه "الولادة الثانية".

د- "الكتابة بلغة الشعب"

يمكن متابعة طروحات الخال في "اللغة وسبل تطورها"، في كتابه "الحداثة في الشعر"[61]، وهو العمل الوحيد الذي أصدره في مجال النقد الأدبي[62].

يرى الخال في كتابه، بدايةً، أننا "نفكر بلغة ونتكلم بلغة، ونكتب بلغة"[63]، لذا يسأل: "هل يكون أننا في الواقع لا ننشىء أدبًا لأننا لا نكتب بلغة الشعب؟". يتابع قائلاً: "أما بدأ الأدب الإنكليزي مثلاً بتشوسر، والإيطالي بدانتي، حين كتبا باللغة التي طورتها الألسن؟"[64].

إن الخال، كما يلحظ، يضع دائمًا، عقبة اللغة أمام أيّة مسألة يطرحها، فيراه المرء هنا، يجري عملية مقارنة سريعة، لإثبات وجهة نظره بين ما وصل إليه الأدب الإنكليزي والإيطالي من تطور، على حدّ تعبيره، لاستخدامه "لغة الشعب"، والأدب العربي المتخبط بتعقيدات اللغة وبإشكالياتها العديدة، إن كان على صعيد "التفكير، أو التعبير باللسان، أو لغة النص". وكما يحاول الخال دائمًا، فإلغاء الفوارق،



أو عدم وضعها موضع التفسير والنقاش في كلامه، يفعل هنا الأمر نفسه، فيقارن بين أدبين، ومن ثمّ بين حضارتين وسيرورتين تاريخيتين مختلفتين الى حدّ ما؛ فالهمّ الذي يدفع الكاتب الإنكليزي أو الايطالي للتعبير، هو غيره عند الكاتب العربي. ولا يكرر البحث، إذا قال: إن هذه الافكار طرحت سابقًا وليست جديدة، ولم يوفر مطلقوها جهدًا، في بثّ أفكارهم ونشرها[65].

يرى الخال في موضع آخر من كتاب "الحداثة في الشعر"، أن "هذا الحرص على تجميد اللغة في قواعدها القديمة المتوارثة دليل على أن العقل العربي غير حديث بعد – أي لا علمي ولا علماني –، بل لا يزال يخضع الحقائق الموضوعية للرغائب الذاتية". يتابع قائلاً: "فمن الحقائق الموضوعية مثلاً، أنّ اللغة تتطور مع الزمن، وأنها تتطور على ألسنة المتكلمين بها"، لكنّ "رغبتنا الذاتية في أن نرى أنفسنا أمّة عربية موحّدة، تحملنا على التمسك بلغة عربية موحّدة خرجت من الأفواه إلى بطون الكتب، وعلى تجاهل تطورها الطبيعي الذي جرت على سننه جميع اللغات". لذا، يرى الخال، أنّ سؤالاً ملحًا قد نهض، وهو: "كيف نوفق بين رغبتنا الذاتية هذه، وبين أن يكون لنا أدب حي بلغة الحياة"[66].

إنه لمن المستغرب، أن يريد الخال إقامة رابط بين لغتين مختلفتين في كل شيء تقريبًا، وأن يراه

المرء في موضع آخر يلغي الروابط بين المتكلمين بلغة ورثوها معًا، وعاشوها معًا، وعانوها معًا. إن حلم كل إنسان عربي هو أن يرى نفسه ضمن أمّة عربية واحدة. وهذا الشعور لا يمكن إلغاؤه الآن ولا في المستقبل. لذا، وبدل أن يعزز الخال هذا الرابط، الذي يراه رابطًا لغويًا فحسب، يقوم أو يحاول أن يقوم بقطعه، ويعلل دائمًا "بالأدب الحي" و"لغة الشعب".

هـ - الشاعر واللغة

يقدم الخال في كتابه للشاعر الذي تواجهه "الصعوبة الأساسية" المتمثلة في نظره، باللغة، مناقشة يخلص في نهايتها إلى حلّ يتغلب الشاعر به على هذه "الصعوبة". يقول الخال: "اللغة للأديب، وفي الأخص للشاعر، هي كل شيء". ويسأل: "فماذا يصنع الأديب إذا كان لا يحيا لغته، إذا كان لا يحياها ولا يحييها مع نبضات قلبه، إذا كان لا يصل بها إلى عمق أعماق الآخر". يتابع: "نحن نعلم أن اللغة لا تصطنع، وأن الحلول التي يضعها المتخلفون منّا لا تعتبر حلولاً، فهي تتجاهل الحقيقة أو تجهلها". ويؤكد الخال مجددًا: "أن اللغة تطورت وتتطور دومًا على ألسنة شعوبها، وأن هذه اللغة العربية المتطورة هي لغة الحاضر والمستقبل، وأن استخدامها في الكتابة أمر محتوم".

ويرى الخال أنّ هذه النظرة إلى اللغة هي السبيل للتغلب على هذه "الصعوبة الأساسية في وجه أدب عربي حي مبدع حديث".

يمكن القول إنّ ثمّة معاناة بين الشاعر واللغة، خصوصًا، وبين الكاتب واللغة عمومًا، وهذا لا يمكن إنكاره، لأن الشعور بما يُراد التعبير عنه، ولا سيما بالكتابة، يبقى أهم وأشمل، ومن ثَمّ لا يمكن سكبه وحصره بحروف. فالصعوبة قائمة أصلاً في التعبير عن الذاتي باللغة، لكن الخال يحجّمها ليضع الحلّ في اللغة، وتحديدًا "اللغة التي يدعو إلى تطورها". ويمكن أيضًا ملاحظة عقبتين إضافيتين أمام الشاعر، وذلك كما يفهم من كلام الخال، وهما:

1 . إحساس الشاعر باللغة.

2 . إيصال هذا الإحساس إلى الآخر.

إن العقبة الأولى نسبية، وعائدة إلى مقدرة كل شاعر على تطويع اللغة للتعبير عمّا يريد قوله. فليس كل الشعراء يواجهون هذه "العقبة"، وإلا لوجد المرء كلّ القصائد اليوم "بلغة الخال الحديثة".

أما العقبة الثانية، فتتمثل في معاناة الشاعر إيصال ما يريد إلى الآخر الذي، من المفترض، أن يكون على معرفة باللغة التي يقرأها، وعلى ارتباط وثيق بالصور المستخدمة لا بالكلمات. ويبدو أن الآخر هو القارىء، وإن لم يحدده الخال.

لقد طرح الخال عقبة الإيصال، وعزاها إلى اللغة، لكن الحقيقة أن العقبة نابعة من مقدرة الشاعر على الإيصال أو عدمه، سواء أكتب باللغة العربية الفصحى أم "بلغة الخال". ويمكن رؤية ذلك، في مقالة نقدية ليوسف الخال نفسه، في مجموعة من القصائد العامية للشاعر اللبناني ميشال طراد (1912- 1998)، إذ يرى الخال أن شعر طراد تقليدي مع أنه مكتوب باللغة المحكية[67].

يتحدث الخال في كتابه "الحداثة في الشعر" عن الشاعر الحقيقي، قائلاً: "فالشاعر الحقيقي لا يلجأ إلى القوالب والأشكال للتأثير على قرّائه، ولا يطمح إلى أن تكون هذه، رغم بيانها الرائع وشطارتها اللغوية، سبيله إلى التجديد، بل يغوص إلى أعماق نفسه، ويخرج منها بتجربة تأخذ في التعبير عن حجمها الحقيقي، وإلا يصبح التعبير نظريًّا منقولاً، لا صلة له بصدق التجربة وحقيقتها. فما العبرة في الصيغ والألفاظ، بل في ما وراءها. والقارىء يعرف صدق ما وراءها إذا أحسّ في أعماقه بها، وكشفت له عن الوحدة والنظام في ما وراء الظواهر التي يراها في نفسه وفي العالم حوله"[68].

يرى الخال، حسبما جاء في كتابه، أنّ صدمة الشاعر في عملية الخلق الشعري متمثلة في تحديين، وهما:

1 . حدود اللغة، المتمثلة، بـ"قواعدها وأصولها التي لا يمكن للشاعر تجاهلها إذا شاء أن يكون لعمله معنى لقراءة هذه اللغة ووجود في تراثها الأدبي".

2 . أساليب التعبير الشعري المتوارث والمتّبع في التراث الأدبي، لأن هذه الأساليب المتوارثة، "أساليب راسخة في الأذهان وفي الذوق العام، بحيث يؤدي الخروج عليها، بغير أناة ومهارة وفهم، إلى إفراغ القصيدة من حضورها لدى القرّاء".

لذا، يرى الخال أنّ حلّ هذين التحديين اللذين يواجهان الشاعر يكون بالتوازن بينهما، ويؤكد الخال هذين التحديين أمام الشاعر لأنهما "يمتحنان أصالة الشاعر وموهبته الإبداعية. فإن هو خضع لهما تمام الخضوع خرجت قصيدته مبذولة جامدة آلية، وإن تمرد عليهما تمام التمرد خرجت قصيدته هذرًا لا حضور لها". أما الصحيح، "فهو أن يعترف الشاعر الأصيل الموهوب بقواعد لغته وأصولها، وبمبادىء الأساليب الشعرية المتأثرة بهذه اللغة والمتوارثة في تاريخها الأدبي. وفي الوقت ذاته يأخذ لنفسه قدرًا كافيًا من الحرية لتطويع هذه القواعد والأساليب ونفخ شخصيته فيها"[69].

وفي اتخاذ الشاعر القدر الكافي من الحرية، فإنه يهتدي إلى ملكة الشعور، التي يراها الخال "قوية عند الشاعر الأصيل الموهوب، بما هو خطأ أو صواب في هذا التعبير أو ذاك. فملكة "الشعور"، لا ملكة العقل، هي التي تسدد خطى الشاعر خلال عملية الخلق في اختيار الألفاظ والصيغ التعبيرية الملائمة، وهي التي تنبهه في حال تجاوزه حدود حريته في التطويع، لئلا تتكسر الأداة فلا تصلح صلة بينه وبين الآخرين. فما نفع القصيدة، بل أي كلام، لولا هذه الصلة؟ أي لولا حاجة الشاعر الجوهرية إلى الاتحاد بالآخرين". يطلب الخال من الشاعر، إذًا، "أن يقنع بربح القليل هنا، وخسارة القليل هناك - أي أن يساوم - في صراعه مع تقاليد اللغة والأسلوب"[70].

أول ما يلفت الانتباه في كلام الخال هنا، هو معيارا الموضوعية والوضوح. لكن إذا كان الخال يقول في معرض حديثه عن الشاعر والتحديين اللذين يواجهانه (حدود اللغة، والأساليب المتوارثة)، إن الخضوع

الكلّي لهما يعني جمود القصيدة، والتمرد الكلّي عليهما يعني الهذر واللاحضور لقصيدته، فكيف سيكون الأمر على صعيد لغة يشمل عدد الفاهمين لها أكثر من مليار نسمة، أن تتغير بحسب ما يطرحه الخال نفسه فيها؟ وكيف يرى الخال كل هذه الصعوبات لخروج قصيدة ناجحة، ويتمهل في طرح حلّ مناسب يبعدها عن السقوط في السطحية والنفور أمام قارئها، ولا يرى هذا أمام اللغة العربية الفصحى؟

لعل الخال نفسه يجيب عن هذه التساؤلات عندما يؤكد في موقع آخر من كتابه، أن "اللغة نظام يعتمد، ككل نظام، على بعض القواعد والأصول التي لا غنى عنها، وإخضاع المعنى العفوي الغامض الخام لهذه القواعد والأصول أمر محتم لتوضيح ماهيته، وهذا يصح كذلك في الأسلوب. فالأسلوب هو الآخر، نظام قائم على بعض الأسس المحتمة، وإخضاع المبنى له يفصل الشعر عن بقية أنواع الكلام، مع العلم أن الأسلوب هو في الواقع قوالب مصطنعة تحتضن القصيدة وتعزلها مؤقتًا عن الحياة، لتتيح للشاعر أن يخلق لها حياة خاصة بها". ويقول: "في حين أن بعض التمسك بقواعد اللغة وأصولها متطلب من جميع أنواع الكلام، فإن التمسك أيضًا، ولو جزئيًا، بأحكام الأسلوب الشعري المتوارث هو الذي يجعل الكلام شعرًا، بل هو الذي يحوّل التمسك بقواعد اللغة وأصولها إلى شيء يتيح للشعر على يد الشاعر المبدع أن يصبح أكثر من مجرد تعبير مألوف"[71].

ويلحظ أن "المتمرد الحقيقي، حين يستهدف اللغة والطريقة، يستهدف اكتشاف الألفاظ والمبنى المطلق الذي يجب أن تتخذه هذه ذاتها. فهو يقسو على الشيء لا لإزالته، بل لتمجيده. وهو في ما يتعلق باللغة ينزل بها الأذى ليعززها ويقويها ويمتحن قدرتها الفائقة على التعبير. وكذلك الأمر في ما يتعلق بالأسلوب"[72].

و- "شعر" و"جدار اللغة"

يعلن الخال، بالعودة إلى سنة 1964، عبر بيان نشر في مجلة "شعر"[73]، عن توقف إصدار المجلة (لأول مرّة)[74] وذلك لاصطدامها، بحسب تعبير الخال، بـ"جدار اللغة".

لكن يوجز الباحث والشاعر السوري كمال خير بك (1935- 1980)، في كتابه "حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر"، خمسة عوامل تكشف عن جوانب عديدة من الأزمة، وأسبابها المباشرة والبعيدة، لتوقف مجلة "شعر" سنة 1964:

1- العوالم الشخصية، والنفسية والفنية، الخ..

2- الظروف المحيطة.

3- مشكلات تتعلق بالانتماء الثقافي (التراث).

4- مشكلات تقع على مستوى اللغة.

5- الارتباك الذي يسود مشروعات إعادة البناء عادة[75].

وإذا عاد المرء إلى جواب الخال عن سؤال طرحه عليه الباحث جاك أماتاييس (Jacques Amateis) في فرنسا، عن سبب توقف مجلة "شعر" سنة 1964، يرى

أن السبب كان ماديًا، ولم يتطرق الخال في جوابه إلى موضوع "جدار اللغة" قط. إذ قال الخال بالعامية: "ما في حدا يكتب. كلهم طاروا... غرقت في الديون والهموم العائلية... أُصدر المجلة ويمنعونها في العالم العربي... الكتب كسدت وخسرت... لم يبقَ في إمكاني الكتابة... وكما كانت ضرورة لإصدار المجلة صارت هناك ضرورة لإقفالها..."[76].

ما يؤكد أن عقبة اللغة العربية الفصحى لم تكن سبب توقف مجلة "شعر" عن الصدور، هو أنها عندما عاودت الصدور مجددًا في العام 1967، صدرت بلغة عربية فصيحة، ولم تصدر بـ"لغة الخال الحديثة" حتى توقفها نهائيًا في خريف العام 1970.

- خلاصة

لم تتخذ دعوة الخال إلى "اقرأ كما تتكلم"[77]، وقوله: "أنا بدي أعمل لغة جديدة"[78]، مسلكًا منهجيًا علميًا، يلحظ عميقًا المفاصل الأساسية التي يمكن من خلالها تعزيز ارتباط اللغة العربية بحركة الحياة اليومية، و"بحياة الشعب"، ولعل هذا سببه – كما لاحظ البحث في البداية – أن منطلقات الخال الأساسية هي شعرية، وليست لغوية.

فلا يمكن اعتماد اللهجة (أو اللغة الدارجة) في الكتابة لتباينها واختلاف أوضاعها، وأية لهجة اخترنا الكتابة فيها، ستفضي بنا إلى مثل ما فررنا منه.

كما لا يجوز قياس العربية على اللاتينية، لأن الفرق بين اللاتينية وفروعها أبعد بكثير من الفرق بين العربية الفصحى وفروعها العامية؛ فالعامي الإنكليزي أو الفرنسي مثلاً ينظر إلى اللاتينية نظرته إلى لغة غريبة لأنه لا يفهم منها شيئًا، أما العامي العربي، فإنه يفهم اللغة العربية الفصحى، وإذا فاته فهم بعض الألفاظ، فإن المعنى الإجمالي يندر أن يفوته منه شيئًا، ولأن الظروف التاريخية والسياسية التي مرت بها اللاتينية غير تلك التي مرّت بها العربية.

أما القول إن اللغة العربية بدعة في اللغات بامتياز اللغة المكتوبة فيها عن اللغة المحكية (أو الدارجة)، فغير دقيق، فالإنكليز يكتبون العلم بلغة لا يفهمها عامتهم يسمونها لغة علمية. والعامي من الفرنسيين لا يفهم أبحاث رينان (Ernest Renan/ 1823 – 1892) في فلسفة العمران، والعامي من الألمان لا يفهم ما كتبه شوبنهور (Arthur Schopenhauer/ 1788 –1860) في فلسفة الوجود.

لذا، بدا واضحًا، أن المقاربة العلمية التي يمكن أن تنتج حلولاً جدية، لا تكمن في اعتماد "لغة المثقفين في الكتابة"، أو في تقسيم العالم العربي إلى "أربع بيئات لغوية"، أو حصر أسماء الموصول بـ"اللي"، وغيرها مما قاله الخال، بل بالسعي إلى فهم الضعف الحضاري (السياسي والثقافي والعلمي الإنتاجي) الذي يتخبط فيه الإنسان العربي، وقد بات مقلدًا ومستلبًا بالكامل أمام الآخر الأجنبي في شؤون حياته اليومية كافة. والمصيبة اليوم تتفاقم بعد اعتماد معظم الأجيال العربية الجديدة "لغة الشات"

(Chat) العجيبة الغريبة، لغةً للتواصل، فهذه "اللغة" التي تعتمد الحرف والرقم الأجنبيين في الكتابة، تخلخل في العمق اللغة العامية (الدارجة) بعد أن تنزع عنها خصوصيتها وهويتها، وتجعلها سلعة ككل السلع الاستهلاكية[79].

من هنا، يبدو كل حديث عن "تطور اللغة" بمعزل عن ربطه بكيفية النهوض من الواقع الحضاري المأزوم، هو كمن يهتم بالغصن فيما الشجرة كلها تحترق.

***

الهوامش:

1- هذا التعبير ليوسف الخال، وقد ورد في "بيان" نشره في مجلة "شعر" (صيف - خريف 1964، ع 31 - 32، ص 2 و3)، مشيرًا فيه إلى أن سبب توقف مجلة "شعر" سنة 1964، كان بسبب "جدار اللغة"، وجدار اللغة هذا هو كون اللغة العربية الفصحى "تُكتب ولا تُحكى، ما جعل الأدب أدبًا أكاديميًّا ضعيف الصلة بالحياة حولنا".

2- **أستاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجامعة اللبنانية.**

3- عالج هذا الاتجاه أشخاص كثر، منهم العلاّمة الشيخ عبد الله العلايلي، وذلك في معظم انتاجه، والدكتور شوقي ضيف، في كتابه "تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا . مع نهج تجديده"، ومحمد عطية الأبراشي، في كتابه "الآداب السامية".

4- يذكر منهم: أنيس فريحة في كتابه "نحو عربية ميسرة"، والشاعر سعيد عقل في كتابه "يارا"، ولويس عوض في كتابه "بلوتولاند"، وسلامة موسى في كتابه "الأدب للشعب".

5- يذكر الباحث الفرنسي جاك أماتاييس أن الخال ولد في سنة 1916. لكن تاريخ 1917 قد ذكره الخال نفسه. يراجع: **أعلام الأدب العربي المعاصر: سير وسير ذاتية**، إعداد الأب رُبرت ب كامبل اليسوعي، فرانتس شتاينر شتوتكارت، بيروت 1996، ط1، مج1، من ص 525 إلى 529. وينظر بحثنا: كامل فرحان صالح: **يوسف الخال: حياته ودعوته اللغوية**- رسالة أعدت لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها - الجامعة اللبنانية 1998، ص 12.

6- يتمثل الشق النظري في ما أسماه بـ"اللغة العربية الحديثة"، وفي رفعه شعارات عدة أبرزها: "إقرأ كما تتكلم"، و"أنا بدي أعمل لغة جديدة"... أما محاولاته التطبيقية، فبرزت في كتب ثلاثة، وهي: "الولادة التانية" و"يوميات كلب" و"على هامش كليلة ودمنة".

7- من هذه المقابلات:

أ - حوار أجراه منير العكش سنة 1971. وقد أثبته في كتابه "**أسئلة الشعر**"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1979، من ص 147 إلى ص 165.

ب- حوار أجراه جهاد فاضل في مجلة الحوادث البيروتية، وقد أثبته في كتابه "**قضايا الشعر الحديث**"، دار الشروق، بيروت 1984 من ص 285 إلى 315.

ج - حوار أجراه جورج طراد سنة 1984، وقد نشره في مجلة **الناقد** البيروتية سنة 1991، أيار (مايو) ع35، السنة 3، من ص 42 إلى ص 49.

د- حوار أجراه جاك أماتاييس في فرنسا سنة 1985، إبان رحلة العلاج الأخيرة للخال، أي قبل سنة وأربعة أشهر من رحيل الخال (المقابلة تحديدًا كانت في 1985/10/14)، وقد حرّره وأعدّه للنشر سليمان بختي على حلقتين في جريدة **النهار** البيروتية، الأربعاء والخميس 9- 1994/3/10، ص9.

هـ - حوار أجراه جهاد فاضل لجريدة القبس الكويتية، ونشره في كتابه، "**أسئلة الشعر**"، الدار العربية للكتاب، لام، لات، لاط، من ص 377 إلى ص 382.

8- **عزرا باوند** (1885-1972): ولد في بلدة هايلي من ولاية إيداهو في الولايات المتحدة الأميركية. من أهم مؤلفاته الشعرية: "شخصيات" personae، و"أفراح" Exultations (صدرتا سنة 1909 في انكلترا)، و"أغان" Canzoni (1911)، و"ردود" Ripostes (1912). وأصدر كتابًا نقديًّا تحت عنوان "روح الرومانطيقية" The spirit of Romance (1910). يُعد "باوند من قادة حركة التطور في الشعر الأميركي المعاصر، وقد أعادت اكتشافاته تقاليد الشعر المنسيّة التي أهملتها عقول المعاصرين، الخصوبة إلى جيل بأكمله من الشعراء والكتّاب. ولا شك في أن شعره ينكشف عن براعة في عدد كبير من اللغات. وباوند هو أحد الأدباء الثوريين، بل لعله أشهر ثوّار هذا القرن [العشرين] على الإطلاق". للمزيد: يراجع: عمر فروخ: **هذا الشعر الحديث**، دار لبنان، بيروت 1985، ط2، ص190. ولويز بوجان، الشعر: **الأدب الأميركي في نصف قرن**، ترجمة سلمى الجيوسي، دار الثقافة، بيروت، بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين، نيويورك 1961، ص65 و66.

9- **توماس ستيرنز إليوت** (1888- 1965): ولد في مدينة سانت لويس من مقاطعة ميسوري في الولايات المتحدة الأميركية، حصل على الجنسية البريطانية سنة 1927. يعدّ من أبرز ممثلي الشعر الحرّ. منح جائزة نوبل في الآداب لعام 1948. من أبرز أعماله "الأرض اليباب" (أو الخراب) The Waste Land (1922)، أهداها إلى باوند، عرفانًا له بالجميل، مسميًا إيّاه "الصانع الأمهر". ويلاحظ أن الخال أيضًا، قد أهدى ديوانه "البئر المهجورة" إلى عزرا باوند، واصفًا إياه بـ"المسيح". يراجع: يوسف الخال: **البئر المهجورة**، دار مجلة شعر، بيروت 1958، الإهداء.

10- يراجع: **الأدب العربي المعاصر**، أعمال مؤتمر روما 1961. قدّم لهذا الكتاب وأشرف على طبعه وراجعه د. عبد الحميد جيده ود. خليل الدويهي. دار الشمال، طرابلس لبنان 1990، ص 47. وكان تقرير الخال تحت عنوان "**الأديب العربي في العالم الحديث**".

11- صدر عن دار مجلة شعر، بيروت.

12- لم يلحظ الباحث للخال محاضرة قبل هذا التاريخ، يمكن أن يستشف منها ملامح من هذه الدعوة، سوى محاضرة ألقاها في الجامعة الأميركية في بيروت في العام 1942.

13- صدرت عن دار النهار للنشر، بيروت.

14- صدرت عن دار النهار للنشر، بيروت.

15- إن كلمة "تطوير" هي لإيضاح المعنى لا لتأكيده.

16- يمكن الإشارة على سبيل المثال، إلى جهود الشاعرين الأميركيين عزرا باوند وت. س. إليوت في هذا السياق، كذلك إلى الناقد الإنكليزي "ليفيس" صديق إليوت. ويقول الخال، في حديث أجراه معه الصحافي جهاد فاضل، عن أثر كلام "ليفيس" في نفسه وفي دعوته اللغوية: "لما ذهبت إلى كامبردج، قابلت الناقد الإنكليزي المعروف "ليفيس" الذي كان من وراء شهرة إليوت. زرتهُ في كامبردج. في مكتبه، وأمام موقده نظر إليّ وقال: عندي معلومات أن لديكم مشكلة لغة. وسألني: بأي لغة تكتبون؟ قلت له: باللغة القديمة المكتوبة. قال: ألا تكتبون باللغة التي تتحدثون بها؟ قلت: لا. قال: إذن ليس عندكم أدب. (لقد رفض كل الأدب العربي). وقال لي: نحن لم يكن عندنا أدب إنكليزي إلا لما كتب "تشوسر" باللغة المحكية. الأدب الإنكليزي ولد يومها. قبله لم يكن عندنا شيء. كان عندنا أدب لاتيني، ولم يكن عندنا قومية إنكليزية أو روح إنكليزية. وأضاف ليفيس: بدون كتابة باللغة المحكية لا أدب عندكم".

ويتابع الخال: "عندما سمعت ذلك مـن "ليفيس" تأكد عندي مـا كنت أقوله سابقًا "قوّاني بزيادة وضليت دافش لقدام ما هاممني حدا... بدهـم يسبّوني يسبّوني. أنا بعمل الحقيقة ولا عندي مصلحة ولا عايز حـدًا". وعندمـا تكون غير محتاج لأحد تغامر وتقوى عندك روح الرغبة في الإصلاح، ودون أن تخاف من أحد. قلت للفيس: نحن نحمل لواء حركة حداثة في لبنان. أجاب: لا حداثة ولا بلَوط. لا أدب حديث إلا بلغة محكية". يراجع: مقابلة مع يوسف الخال، جهاد فاضل: **أسئلة الشعر**، الدار العربية للكتاب، ص381. ومذكور في آخر المقابلة عبارة "**القبس**"، ويعتقد أنها نشرت في جريدة القبس الكويتية.

17- يوسف الخال، أعمال مؤتمر روما "**مؤتمر الأدب العربي المعاصر**"، ص 115.

18- يراجع: جهاد فاضل: **قضايا الشعر الحديث**، ص 285 - 315.

19- **قضايا الشعر الحديث**، م.ن.

20- يراجع: محمد عطية الأبراشي: **الآداب السامية**، مصر 1946، ط1، ودار الحداثة، بيروت1981، ط2.

21- ليست اللهجة اللبنانية لهجة واحدة، بل هي عدة لهجات. إنما الخال اقتصر على لهجة المثقفين اللبنانيين المتمثلة لديه، وبحسب دعوته، بهذه الكتابة الشعرية.

22- يوسف الخال: "**الولادة التانية**"، دار مجلة شعر، بيروت 1981. قصيدة "من ديوان طرفة بن العبد"، ص 57. **إن الكلام الذي بين قوسين معقوفين أضيف من الباحث.**

23- يوسف الخال: "**يوميات كلب**"، دار النهار للنشر، بيروت 1987، مقطع "اليوم التامن والأربعين"، ص 32.

24- للمزيد عن ديوان إليوت، يراجع: ت.س. إليوت: "**ديوان القطط: ما قاله الجرذ العجوز عن القطط العملية**"، ترجمة وتقديم د. صبري حافظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1987، لا ط. أما العنوان الأصلي للكتاب فهو:

T.S. Eliot: “old Possum’s Book of Practical cats”. Faber and Faber (London: 1939)

ما ترجمته حرفيًّا: كتاب الجرذ العجوز عن القطط العملية. لكن مترجم الكتاب رأى في العنوان بعض الصعوبات، ما دفعه إلى اختيار العنوان العربي الحالي: "ديوان القطط (...)". يراجع: مقدمة الكتاب، ص17.

25- يشار إلى أن ما ورد سابقًا عن طروحات الخال في مسألة اللغة، يأتي ضمنًا خلال هذه المرحلة.

26- يوسف الخال، **محاضرات الجامعة الأميركية سنة 1942**. ويراجع: منير العكش: "**أسئلة الشعر**"، ص149.

27- م. ن.

28- ينظر: ابن الجزري: **النشر في القراءات العشر**، بإشراف علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، لات، مج1، ص20.

29- يراجع: د. عفيف دمشقية: **أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي**، معهد الإنماء العربي، بيروت 1978، ص14. وابن قتيبة: **تأويل مشكل القرآن**، تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر 1954، ص26.

30- يراجع كتابه: **الآداب السامية**، ص 111.

31- يراجع كتابه: **في اللغة العربية وبعض مشكلاتها**، ص 5.

32- ينظر: أنطون سعادة: **المحاضرات العشر 1948**، منشورات عمدة الثقافة في الحزب السوري القومي الاجتماعي، بيروت 1980، ص75. كما لا ينسى محلل المحاضرات العشر في القسم الثاني من الكتاب، وقفة سعادة المبكرة والمتحدية في المحاكمة الأولى (1935) دفاعًا عن اللغة العربية وإصراره (أي سعادة) على التكلم بها في محاكمة الانتداب الفرنسي، لأنها: "لغة بلادي". يراجع القسم الثاني من الكتاب، ص 12.

33- لهذا، يبدو أن الداعين إلى إحلال العامية محل الفصحى، قد استغلوا هذه الناحية، ليثبتوا أن اللغة العربية الفصحى اليوم هي من لهجة واحدة (لهجة قريش)، وليست نتيجة مجموع لهجات عديدة كانت آنذاك، ومنهم يوسف الخال.

34- للمزيد ينظر: أ. ولفنسون: (ابو ذؤيب): **تاريخ اللغات السامية**، دار القلم، بيروت 1980، ص166، وأحمد تيمور: **معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية**، تحقيق د. حسين نصار، الهيئة العامة للتأليف والنشر، مصر ط1، 1971، ج 1.

35- يراجع: العلامة ابن منظور: **لسان العرب المحيط**، معجم لغوي علمي، قدّم له الشيخ العلامة عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خيّاط، دار لسان العرب، بيروت، لا ت.، ط1، 3/378، 379، 401.
36- يراجع: **معجم تيمور**، ج1، ص 6.
37- أ. ولفنسون: **تاريخ اللغات السامية**، ص 219.
38- م. ن.
39- عبداللطيف شرارة: **معارك أدبية قديمة ومعاصرة**، دار العلم للملايين، بيروت 1984، ط1 (يلحظ رد عزّة دروزة على دعوة سلامة موسى إلى هجر الفصحى واصطناع العامية، نصوص ملحقة بالفصل التاسع: بين العامية والفصحى) ص 229.
40- م. ن.
41- يراجع: أ. ولفنسون: **تاريخ اللغات السامية**، ص 220، ومحمد عطية الأبرشي: **الآداب السامية**، ص 194. وأحمد أبو سعد: **اللهجة اللبنانية في أصولها العربية**، مجلة القومي العربي، بيروت تموز 1990، ع 69، ص 42.
42- أبو سعد: **اللهجة اللبنانية في أصولها العربية**، م. ن.، ص 42.
43- أ. ولفنسون: **تاريخ اللغات السامية**، ص 215.
44- ولفنسون: **تاريخ اللغات السامية**، ص 222. ومن الكلمات القبطية التي لا تزال مستعملة في العامية المصرية كلمات مثل: "طوب" ومعناها بالقبطية حجر. "ميت" ومعناها ريف. "بولاق" ومعناها شاطئ النهر. "شونة" معناها مخزن. و"ظلط" حجر أملس، وغيرها.
45- يراجع ولفنسون، ص223 و224. لأن العرب الفاتحين، بحسب رأي ولفنسون، "قد وجدوا في سورية ولبنان وفلسطين طوائف كثيرة من السريان واليهود".
46- يراجع: مارون عبود: **الشعر العامي**، المجموعة الكاملة، في الدراسة، مج 2، دار مارون عبود ودار الثقافة، بيروت لا ت.، ص333 وما بعدها.
47- ولا سيما في المناطق الشمالية القريبة من حدود الأناضول
48- أهم هذه اللهجات لهجة "مهرة" التي احتفظت ببعض الخصائص السامية الأصلية في نطق كلمات كثيرة. وهي تجمع بين المادة اللغوية السبئية والمعينية المألوفة في النقوش وبين اللغة العربية الشمالية. يراجع: أ. ولفنسون، ص225.
49- ولفنسون، ص 226.
50- يذكر من هذه الكتب: ما تلحن به العوام: للكسائي (189 هـ)، ما تلحن فيه العامة: لأبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي صاحب الأصمعي (321 هـ)، البهاء فيما تلحن فيه العامة: ليحيى بن زياد الديلمي المعروف بالفراء (207 هـ)، ما تلحن فيه العامة: لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (291 هـ)، لحن العامة: لأبي عبيدة (209 هـ)، لحن العامة: لأبي حاتم السجستاني (255 هـ)، لحن العامة: لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (290 هـ)، لحن الخاصة: لأبي هلال حسن بن عبد الله العسكري (395 هـ)، درة الخواص في أوهام الخواص: للإمام أبي القاسم الحريري (516 هـ). إلخ.
لم تكن هذه المؤلفات تهدف إلى دراسة العامية لذاتها كما فعل المستشرقون ومن حذا حذوهم في عصرنا، بل كانت تهدف إلى خدمة الفصحى عن طريق تقويم ألسنة العامة وتصحيح أخطائهم.
يراجع: عيسى إسكندر المعلوف: **مجلة مجمع اللغة العربية**، القاهرة 1935، ج1، ص 352. وسنة 1937، ج3، ص349. وكتاب د. نفوسة زكريا سعيد: **تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر**، دار المعارف، مصر 1980، ص 6 و7.
51- يراجع: محمد عطية الأبراشي: **الآداب السامية**، موضوع "أثر اللغة العربية في اللغات الأخرى"، ص179 وما بعدها. وبعض هذه اللغات هي: الفارسية، الهندوسية، التركية، الإسبانية، الفرنسية والإنكليزية.
52- يمكن تحديد هذا الانحطاط من بداية اكتساح السيل المغولي لبغداد سنة 1258 م إلى منتصف القرن التاسع عشر.
53- هي محاضرة يمكن عدّها أول بيان منظومي لحركة الشعر الحديث، يستقصي آفاقها، ويضع أسسًا لتطويرها. وقد تزامن هذا البيان مع صدور العدد الأول من مجلة **"شعر"** في ك2، 1957. يراجع: محمد جمال باروت: **من العصرية إلى الحداثة**، مجلة قضايا وشهادات، مؤسسة عيبال، دمشق، ع3، شتاء 1991، ص 166.
54- يوسف الخال: **محاضرات الندوة اللبنانية**، السنة الحادية عشرة، النشرة الخامسة، نوّار (أيار) سنة 1957. وألقيت هذه المحاضرة في 31 كانون الثاني 1957.
55- لكن الخال عندما يعيد نشر هذه الأسس في كتابه **"الحداثة في الشعر"**، يقول في النقطة الثامنة: "الغوص إلى أعماق التراث الروحي والعقلي الإنساني، وفهمه وكونه والتفاعل معه". (ص 81).
56- يراجع، يوسف الخال، **محاضرات الندوة اللبنانية**، م.س.
57- يراجع: يوسف الخال: **دفاتر الأيام**، منشورات رياض الريس، بيروت 1987، ط1، ص11.
58- يوسف الخال: مجلة **"شعر"**، 1960، ع13، ص117.
59- صدر هذا الكتاب عن دار الهدى، نيويورك، سنة 1954
60- يوسف الخال: **هيروديا**، المقدمة.
61- يوسف الخال: **الحداثة في الشعر**، دار الطليعة، بيروت 1978. (إن معظم فصول هذا الكتاب نشرها الخال في مجلة شعر ابتداء من العام 1957 حتى 1964، إضافة إلى التقرير الذي قدمه في مؤتمر روما سنة 1961، لكنه أعاد ترتيب بعض المواضيع والصيغ عند نشر الكتاب).
62- يلاحظ خلال عرض الكتاب أن تركيز الخال جاء منصبًا على اللغة عمومًا، واللغة الشعرية خصوصًا. وكي لا يفهم من عرض الكتاب أنه عن اللغة فحسب، لا بد من الإشارة إلى أن البحث لحظ في الكتاب بعض القضايا المتقاطعة مع موضوعه، ولم يلحظ قضايا الكتاب كافة.

63- أورد الخال هذه "الثلاثية" في كتابه: **الحداثة في الشعر**، ص 6.
64- هذا الكلام قد أورده الخال سابقًا في تقريره المقدم إلى أعمال مؤتمر روما سنة 1961. يراجع: **الأدب العربي المعاصر، أعمال مؤتمر روما 1961**، ص46.
65- للمزيد عن هذه الدعوات، ينظر: كامل صالح: **يوسف الخال: حياته ودعوته اللغوية**، م. س.، (الفصل الثاني: تاريخ الدعوة إلى اللغة العامية). ود. نفوسة زكريا سعيد: **تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر**، دار المعارف، مصر 1980، ط2. ود. كامل فرحان صالح: **الشعر والدين**، دار الحداثة، بيروت 2005، ط 1. (الباب الثاني: الهوية - الغرب والشعر).
66- **الحداثة في الشعر**، ص 6 و7.
67- يوسف الخال: **"دولاب، لميشال طراد"**، مجلة شعر، ع4، 1957، ص 109 وما بعدها. علمًا أن مقالة الخال النقدية كتبت بـ"اللغة الدارجة".
68- يوسف الخال: **الحداثة في الشعر**، ص 88.
69- الخال: **الحداثة في الشعر**، ص 18 و19.
70- الخال: **الحداثة في الشعر**، ص 20.
71- م. ن.
72- م.ن. ص 21 و22.
73- يوسف الخال: مجلة **"شعر"**، صيف - خريف 1964، ع 31 - 32.
74- عادت المجلة إلى الصدور في العام 1967.
75- يراجع كتابه: ص 109. وثمة من يرى أن سبب توقف مجلة شعر سنة 1964، هو نتيجة إصابة حركة المجلة، في ما يتصل بالشكل الجديد الذي تبنته للقصيدة العربية، بهزّة وفاة الشاعر العراقي بدر شاكر السياب في 24 من ديسمبر (كانون الأول) سنة 1964. ينظر: س. موريه: **الشعر العربي الحديث 1800 - 1970، تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي**، ترجمه وعلّق عليه د. شفيع السيد ود. سعد مصلوح، دار الفكر العربي، القاهرة 1986، ص 416 و417 و418.
76- من حوار أجراه أماتاييس في باريس مع الخال، إبان رحلة العلاج الأخيرة، جريدة **النهار** اللبنانية، الأربعاء 9-3-1994، ص 9.
أما رأي الصحافي جهاد فاضل في توقف مجلة "شعر" للمرة الأولى واصطدامها بجدار اللغة كما ذكر الخال في بيانه، فكان: "واستمرت المجلة الأنيقة الإخراج والورق والطبع تعاني من غربة رافقتها طيلة حياتها. وعندما اشتدت عزلتها وقوي ارتياب الآخرين، كل الآخرين، بها، توقفت فجأة عن الصدور، ولكن، بدعوى ماذا؟ بدعوى أن اللغة العربية، اللغة القديمة الحديثة المتجددة الحية البهية، لغة مانعة من الحداثة المرجوة. أما الخير كل الخير هذه المرة، ففي اللهجة المحكية". يراجع: جهاد فاضل، **قضايا الشعر الحديث**، ص 105.
77- شعار بدأ به الخال مقدمة **"الولادة الثانية"**، دار مجلة شعر، بيروت 1981.
78- يوسف الخال، من حوار أجراه جهاد فاضل: **قضايا الشعر الحديث**، ص 312.
79- ينظر بحثنا: كامل فرحان صالح: **اللغة العربية وتلقيها في العصر الرقمي (في تحديات القراءة والكتابة والإعلام والتعلّم)**- نشرت في كتاب ضم أعمال المؤتمر الدولي الذي نظمه ماستر التواصل وتحليل الخطاب ومختبر التراث الثقافي في جامعة ابن طفيل - كلية الآداب والعلوم الإنسانية في القنيطرة المغرب، تحت عنوان: مسالك الكتابة وآفاق التلقي في اللغة والأدب والحضارة - الناشر: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع - الأردن 2016.

***

* مكتبة البحث:

- المصادر:

*** يوسف الخال:**

- **دواوين:**
• الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت 1979، ط2
• البئر المهجورة، دار مجلة شعر، بيروت 1958
• على هامش كليلة ودمنة، دار النهار للنشر، بيروت 1987
• هيروديا، دار الهدى، نيويورك 1954
• الولادة الثانية، دار مجلة شعر، بيروت 1981
• يوميات كلب، دار النهار للنشر، بيروت 1987
- **كتب:**
• الحداثة في الشعر، دار الطليعة، بيروت 1978
• دفاتر الأيام، منشورات رياض الريس، بيروت 1987
- **محاضرات:**
• الأدب العربي المعاصر، أعمال مؤتمر روما 1961. قدّم لهذا الكتاب وأشرف على طبعه وراجعه د. عبد الحميد جيده ود. خليل الدويهي. دار الشمال، طرابلس لبنان 1990. وكانت محاضرة الخال تحت عنوان "الأديب العربي في العالم الحديث".
• محاضرات الندوة اللبنانية، السنة الحادية عشرة، النشرة الخامسة، نوّار (أيار) سنة 1957. وألقيت هذه المحاضرة في 31 كانون الثاني 1957.
• محاضرة ألقاها في الجامعة الأميركية في بيروت في العام 1942.
- **مقابلات:**
• حوار أجراه جاك أماتاييس في فرنسا سنة 1985، إبان رحلة العلاج الأخيرة للخال، أي قبل سنة وأربعة أشهر من رحيل الخال (المقابلة تحديدًا كانت في 1985/10/14)، وقد حرّره وأعدّه للنشر سليمان بختي على حلقتين في جريدة النهار البيروتية، الأربعاء والخميس 9- 1994/3/10، ص9.
• حوار أجراه جهاد فاضل في مجلة الحوادث البيروتية، وقد أثبته في كتابه "قضايا الشعر الحديث"، دار الشروق، بيروت 1984 من ص 285 إلى 315.

• حوار أجراه جهاد فاضل لجريدة القبس الكويتية، ونشره في كتابه، "أسئلة الشعر"، الدار العربية للكتاب، لام، لات، لاط، من ص 377 إلى ص 382.

• حوار أجراه جورج طراد سنة 1984، وقد نشره في مجلة الناقد البيروتية سنة 1991، أيار (مايو) ع35، السنة 3، من ص 42 إلى ص 49.

• حوار أجراه منير العكش سنة 1971. وقد أثبته في كتابه "أسئلة الشعر"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1979، من ص 147 إلى ص 165.

- **مقالات:**

• مجلة "شعر": ع4، 1957، ع13، 1960، وع 31 - 32، صيف - خريف 1964

- المراجع العربية والمعربة:

1. ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، بإشراف علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، لات، مج1

2. ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر 1954

3. ابن منظور (العلامة): لسان العرب المحيط، معجم لغوي علمي، قدّم له الشيخ العلامة عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خيّاط، دار لسان العرب، بيروت، لا ت.

4. أحمد تيمور: معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، تحقيق د. حسين نصار، الهيئة العامة للتأليف والنشر، مصر 1971، ج 1.

5. أعلام الأدب العربي المعاصر: سير وسير ذاتية، إعداد الأب رُبرت ب كامبل اليسوعي، فرانتس شتاينر شتوتكارت، بيروت 1996، مج1

6. أنطون سعادة: المحاضرات العشر 1948، منشورات عمدة الثقافة في الحزب السوري القومي الاجتماعي، بيروت 1980.

7. أنيس فريحة: في اللغة العربية وبعض مشكلاتها، دار النهار، بيروت 1980

8. أنيس فريحة: نحو عربية ميسرة، دار الثقافة، بيروت 1955

9. أ. ولفنسون: (ابو ذؤيب): تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت 1980

10. ت. س. إليوت: "ديوان القطط: ما قاله الجرذ العجوز عن القطط العملية"، ترجمة وتقديم د. صبري حافظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1987، لا ط. أما العنوان الأصلي للكتاب فهو: T.S. Eliot: "old Possum's Book of Practical cats". Faber and Faber (London: 1939) ما ترجمته حرفيًا: كتاب الجرذ العجوز عن القطط العملية. لكن مترجم الكتاب رأى في العنوان بعض الصعوبات، ما دفعه إلى اختيار العنوان العربي الحالي: "ديوان القطط (...)".

11. سعيد عقل: يارا، بيروت 1961 (شعر باللغة اللبنانية)

12. سلامة موسى: الأدب للشعب، مصر 1956

13. س. موريه: الشعر العربي الحديث 1800 - 1970، تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي، ترجمه وعلّق عليه د. شفيع السيد ود. سعد مصلوح، دار الفكر العربي، القاهرة 1986

14. شوقي ضيف: تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا . مع نهج تجديده، دار المعارف، القاهرة 1986

15. عبداللطيف شرارة: معارك أدبية قديمة ومعاصرة، دار العلم للملايين، بيروت 1984

16. عفيف دمشقية: أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي، معهد الإنماء العربي، بيروت 1978

17. عمر فروخ: هذا الشعر الحديث، دار لبنان، بيروت 1985، ط2

18. كامل صالح: الشعر والدين، دار الحداثة، بيروت 2005

19. كامل صالح: اللغة العربية وتلقيها في العصر الرقمي (في تحديات القراءة والكتابة والإعلام والتعلّم)- نشرت في كتاب ضم أعمال المؤتمر الدولي الذي نظمه ماستر التواصل وتحليل الخطاب ومختبر التراث الثقافي في جامعة ابن طفيل - كلية الآداب والعلوم الإنسانية في القنيطرة المغرب، تحت عنوان: مسالك الكتابة وآفاق التلقي في اللغة والأدب والحضارة - الناشر: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع - الأردن 2016.

20. كامل صالح: يوسف الخال: حياته ودعوته اللغوية- رسالة أعدت لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها - الجامعة اللبنانية 1998

21. لويز بوجان، الشعر: الأدب الأميركي في نصف قرن، ترجمة سلمى الجيوسي، دار الثقافة، بيروت، بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين، نيويورك 1961

22. لويس عوض: بلوتولاند، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1989، وكانت الطبعة الأولى في العام 1947

23. مارون عبود: الشعر العامي، المجموعة الكاملة، في الدراسة، مج 2، دار مارون عبود ودار الثقافة، بيروت لا ت.

24. محمد عطية الأبراشي: الآداب السامية، دار الحداثة، بيروت1981، ط2

25. نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار المعارف، مصر 1980، ط2

- المجلات والدوريات:

1. أحمد أبو سعد: اللهجة اللبنانية في أصولها العربية، مجلة القومي العربي، بيروت تموز 1990، ع 69

2. عيسى إسكندر المعلوف: مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة 1935، ج1. وسنة 1937، ج3

3. محمد جمال باروت: من العصرية إلى الحداثة، مجلة قضايا وشهادات، مؤسسة عيبال، دمشق، ع3، شتاء 1991

***